

# دَفَاعًا عَنْ الثُورَةِ الرُّوسِيَّةِ

ليون تروتسكي  
27 نوفمبر 1932



# دفاعاً عن الثورة الروسية

محاضرة ألقاها ليون تروتسكي

التاريخ: 27 نوفمبر/تشرين الثاني 1932

المكان: كوبنهاغن (عاصمة الدانمارك)

ألقى تروتسكي هذه المحاضرة بدعوة من التجمع الدانماركي "الطلاب الاشتراكيون" وعنوان المحاضرة الأصلي هو "دفاعاً عن أكتوبر". عندما ألقى هذه المحاضرة، كان تروتسكي منفياً من الاتحاد السوفييتي. وسوف يطرد بعدها بقليل من الدانمارك.

المصدر: [www.rezgar.com](http://www.rezgar.com)

## الثورة

تعني الثورة تغييراً للنظام الاجتماعي. إنها تنقل السلطة من أيدي طبقة أنهكت إلى أيدي طبقة أخرى صاعدة. وتشكل الانفاضة اللحظة الأكثر حرجاً وحدة في صراع الطبقتين من أجل السلطة. ولا يمكن للانفاضة أن تؤدي إلى انتصار الثورة الحقيقي والى انتصار نظام جديد إلا في حالة استنادها إلى طبقة تقدمية قادرة على أن تجمع حولها أغلبية الشعب الساحقة.

إن الثورة بخلاف سيرورات الطبيعة، يتحققها البشر بواسطة البشر. إلا أن البشر، في الثورة أيضاً، يتصرفون تحت تأثير ظروف اجتماعية لم يختاروها بحرية، ولكنها موروثة عن الماضي وتدعهم على الطريق دونما خيار. ولهذا السبب بالضبط، ولهذا السبب وحده، للثورة قوانينها الخاصة.

لكن وعي الإنسان لا يعكس الظروف الموضوعية وهو سلبي. إنه عادة يظهر تجاهها رد فعل نشيط. وفي بعض الأحيان، يكتسب رد الفعل هذا طابعاً جماهيرياً، متواتراً، حماسياً. ويطاح بحواجز الحق والسلطة. إن التدخل الفعال للجماهير في الأحداث هو بالضبط ما يشكل العنصر الأكثر أساسية في الثورة. بيد أنه حيث النشاط الأكثر جموداً يمكنه أن يبقى عند مستوى تظاهره، أو تمرد، دون أن يرتفع إلى مستوى الثورة. على انفاض الجماهير أن يؤدي إلى الإطاحة بسيادة طبقة وإرساء سيادة طبقة أخرى. وعندما فقط تكون أمام ثورة مكتملة. ليس انفاض الجماهير محاولة معزولة يمكن للمرء إطلاقها عندما يطيب له. إنه يمثل عنصراً محدوداً بصورة موضوعية في تطور الثورة، مثلاً الثورة هي عملية محددة موضوعياً في تطور المجتمع. ولكن إذا ما إن وجدت ظروف الانفاض، فيجب عدم الانتظار سلبياً، مفتواهي الفم: هنالك في القضايا البشرية أيضاً، كما يقول شكسبير، مد وجزر: "هناك حركة مد وجزر في أعمال الناس، إذا أخذت في مدها، تؤدي إلى التوفيق".

لكي تقوم بتكتيس النظام المتعيش، على الطبقة التقدمية أن تفهم أن ساعتها قد دقت، وأن تطرح كمهمة على نفسها استلام السلطة. هنا يفتح حقل العمل الثوري الوااعي حيث يتحدد التوقع والحساب بالإرادة والإقدام. وبتعبير آخر: هنا يفتح مجال فعل الحزب.

## "الانقلاب"

يضم الحزب الثوري خيرة الطبقة التقدمية. وفي غياب حزب قادر على تحديد توجهه حسب الظروف وعلى تقييم سير الأحداث ووتيرتها وعلى اكتساب ثقة الجماهير خلال الوقت المناسب، يستحيل على الثورة البروليتارية أن تنتصر. هذه هي علاقة العوامل الموضوعية للثورة والانتفاضة بعواملها الذاتية.

و لطالما سعى المتخاصمون كما تعلمون، وبشكل خاص في اللاهوت، إلى الحط في النقاشه من شأن الحقيقة العلمية، دافعين بها إلى العبث. وفي المنطق تتعت حتى مثل هذه الحقيقة: بقياس الخلف reduction ad absurdum أنا سنحاول أن ننتهي الخط المعاكس، أي أنا لنقرب بشكل أكثر تأكيداً من الحقيقة سنتخذ إهالة نقطة انطلاق. ولا يمكننا على أي حال أن نشكو من قلة في الإحالات. فلنناول إحداها الأكثر حداثة و فجاجة.

لقد وجد الكاتب الإيطالي مالابارت وهو شيء يمكن وصفه بالمنظر الفاشisti - هنالك مثل هؤلاء أيضا - في الفترة الأخيرة كتاباً في تقنية الانقلاب، و يكرس المؤلف بطبيعة الحال عدداً لا يستهان به من صفحات "بحثه" لانتفاضة أكتوبر.

بخلاف "استراتيجية" لينين، التي تبقى مرتبطة بالوضع الاجتماعي والسياسي لروسيا سنة 1917، لا يمت تكتيک تروتسكي - حسب تعبير مالابارت - على العكس، بأية صلة لأوضاع البلاد العامة". هذه هي فكرة الكاتب الرئيسية ! ويرغم مالابارت لينين وتروتسكي، من خلال صفحات كتابه، على القيام بحوارات عديدة، يظهر فيها كلا المحاورات تفكيراً قليلاً العميق بقدر ما وضعت الطبيعة في حيازة المدعو مالابارت. ورداً على انتراضات لينين حول المقدمات الاجتماعية والسياسية للانتفاضة ينسب مالابارت لتروتسكي الجواب الحرفي المزعوم الآتي: "إن استراتيجية تروتسكي تستلزم كثيراً من الظروف المؤاتية. أما الانتفاضة فلا تحتاج شيئاً، إنها تكفي ذاتها" أتسمعون ؟ "الانتفاضة لا تحتاج شيئاً"، هذه هي بالضبط، أيها المستمعون الأعزاء، الإهالة التي سنسخدمها لنقرب من الحقيقة. وإن الكاتب يردد بإصرار أن الذي انتصر في أكتوبر ليس استراتيجية لينين وإنما تكتيک تروتسكي. و ما زال هذا التكتيک الآن يهدد، حسب تعبيره بالذات، طمأنينة الدول الأوروبية. "لا تشكل استراتيجية لينين - وهذا

أنقل حرفيا عنه - أي خطر فوري على حكومات أوروبا. أما تكتيک تروتسکي فيشكل بالنسبة لها خطرا راهنا، وبالتالي دائمًا." وبكلام ملموس أكثر: "لو أحالنا بونكاری محل كيرنستكي، لحق الانقلاب البلشفي أكتوبر 1917 تماما النجاح نفسه." من الصعب التصديق بأن كتابا كهذا تجري ترجمته إلى لغات مختلفة ويتم استقباله بجدية.

عثا، نسعى إلى إيضاح لماذا استراتيجية لينين، الخاضعة لشروط تاريخية، ضرورية بصورة عامة، إذا سمح "تكتيک تروتسکي" بحل المهمة نفسها في أي ظرف. وإن كان يكفي الثورات الظافرة، لتجح، بعض الوصفات التقنية، فلم هي بهذه الندرة؟

إن الحوار الدائر بين لينين وتروتسکي كما يقدمه الكاتب الفاشستي هو من حيث روحه كما من حيث شكله بدعة بلها من البداية إلى النهاية. ومثل هذه البدع منتشرة كثيرا في العالم. وعلى سبيل المثال، يجري الآن في مدريد طبع كتاب منسوب إلى: "حياة لينين" ومسؤوليته عنه بنفس قدر مسؤوليتي عن وصفات ملا بارت التكتيكية. وقد عرضت مجلة مدريد الأسبوعية "أستمبا" على أفضل الأوراق فصولا كاملة من هذا الكتاب المزعوم لتروتسکي حول لينين، تحتوي على إهانات شنيعة لذكرى الإنسان الذي قدرته وأقدرها أكثر بما لا يقاس من أي من معاصري.

ولكن، لنترك الملففين لمصيرهم. كان يحلو لويلهام ليبنخت العجوز، والد المقاتل والبطل الخالد كارل ليبنخت، الترداد: على الإنسان السياسي الثوري أن يتمتع بجلد غليظ. وكان الدكتور ستوكمن، بصورة أكثر تعبيرا أيضا، يوصي الذي ينوي مواجهة الرأي العام الإجتماعي أن لا يلبس سراويل جديدة.

إننا نسجل هاتين النصيحتين المفیدتين وثم ننتقل إلى جدول الأعمال.

فما هي التساؤلات التي توقفها ثورة أكتوبر عند إنسان يفكر ؟

1) لماذا وكيف انتصرت هذه الثورة ؟

وبدقة أكثر: لماذا انتصرت الثورة البروليتارية في أحد أكثر بلدان أوروبا تأخرا ؟

2) بماذا أنت ثورة أكتوبر ؟

وأخيرا:

3) هل أثبتت قدرتها ؟

## أسباب أكتوبر

و من الآن يمكننا أن نعطي جوابا كاملا على السؤال الأول، المتعلق بالأسباب. وقد حاولت القيام بهذا الشكل الأكثر وضوحا في كتابي "تاريخ الثورة الروسية". ولا يسعني هنا إلا أن أعرض أهم الاستنتاجات.

إن كون البروليتاريا قد توصلت لأول مرة إلى الحكم في بلد بمثيل تخلف روسيا القيصرية القديمة لا يبدو غامضا إلا لأول نظرة. أما في الواقع، فهو منطقي تماما. وكان يمكن توقعه وقد تم ذلك. لا بل أكثر من ذلك: لقد وضع الثوريون الماركسيون استراتيجيتهم حول النظرة لهذا الواقع، قبل وقوع الأحداث الحاسمة بفترة طويلة.

إن التفسير الأولي هو الأعم: فروسيا بلد متأخر ولكنها ليست إلا مجرد جزء من الاقتصاد العالمي، إلا عنصراً في النظام الرأسمالي العالمي. وقد حل لينين لغز الثورة الروسية بهذا المعنى في تعبير قاطع: أن السلسلة قد انقطعت عند حلقتها الأكثر ضعفا.

إن إبانة واضحة هي: أن الحرب الكبرى التي انبثقت عن تناقضات الإمبريالية العالمية قد جرت في دوامتها بلداناً على مراحل مختلفة من التطور، ولكنها أرغمت كافة المشاركين على أداء نفس المتطلبات. ومن الجلي أنه لابد أن أعباء الحرب شكلت أول من أُجبر على الانسحاب. ولكنه توجب على الشعب الروسي القضاء على الطبقات المسيطرة، في سبيل تركه للحرب. وهكذا انقطعت سلسلة الحرب عند أضعف حلقاتها.

بيد أن الحرب على خلاف المهرة الأرضية لا تمثل كارثة حلت من الخارج، إنها كما يقول كلاوزفيتز العجوز، استمرار للسياسة بوسائل أخرى. ولم يكن من اتجاهات النظام الإمبريالي الرئيسية أيام "السلم" إلا أن تجلت أثناء الحرب بجدية أكثر. وكلما كانت القوى المنتجة العامة على مستوى أعلى. والمنافسة العالمية أكثر تأزماً، والتناحرات أكثر حدة، والسباق إلى التسلح أكثر جموداً، كلما أصبح وضع أضعف للمشاركين شاقاً. لذلك بالذات تحمل البلدان المتأخرة المراتب الأولى في سلسلة الانهيارات. إن سلسلة الرأسمالية العالمية تمثل دائماً إلى الانقطاع عند أضعف حلقة.

ولو أعيدت الرأسمالية الروسية على امتداد الأراضي السوفياتية الشاسعة على إثر بعض الظروف الاستثنائية أو غير المؤاتية للغاية (مثلاً تدخل عسكري ظاهر من الخارج، أو أخطاء لا تعوض للحكومة السوفيتية نفسها)، فسيعاد معها في الوقت نفسه بصورة حتمية عجزها التاريخي، وستقع هي بالذات بعد مدة وجيزة ضحية نفس التناقضات التي أدت بها في سنة 1917 إلى الانفجار. مما من وصفة تكتيكية كان يسعها أن تهب الحياة لثورة أكتوبر لو لم تكن روسيا تحملها في جسمها. وليس في وسع الحزب الثوري في النهاية أن يطمح لنفسه إلا بدور المولد المضطر إلى اللجوء إلى عملية قيسارية.

وقد يمكن لإمرئ أن يعترض قائلاً: يمكن لتأملاتك العامة أن تفسر بشكل كاف لماذا كان على روسيا القديمة، ذلك البلد حيث تتوج وجود الرأسمالية المتأخرة بقرب الفلاحين البائسين طبقة نبلاء طفيلية ونظام ملكي متغصن، كان عليها أن تغرق. ولكن ما زال ينقص صورة السلسلة والحلقة الأضعف مفتاح اللغز بحد ذاته: كيف كان يسع الثورة الإشتراكية أن تنتصر في بلد متأخر؟ إن التاريخ يعرف الكثير من أمثال انحطاط بلدان وثقافات مع انهيار الطبقات القديمة معاً لعدم وجود أي بديل تقدمي. وكان على انهيار روسيا القديمة، للناظرة الأولى، أن يحول البلاد إلى مستعمرة رأسمالية بدلاً من تحويلها إلى دولة اشتراكية.

إن هذا الاعتراض الجدير بالانتباه. فهو يقودنا مباشرة إلى قلب المشكلة كلها. ومع ذلك فهذا الاعتراض خاطئ ، وقد أقول أنه عديم التناسب الداخلي . إنه ينبع من جهة من تصور مبالغ في ما يخص تأثر روسيا، ومن جهة أخرى من مفهوم نظري خاطئ فيما يخص ظاهرة التأثر التاريخي عامة.

تمر الكائنات الحية، والبشر طبعا كذلك كغيرهم، تبعا لعماراتها بأطوار نمو متشابهة. فثمة تقابل معين بين الوزن ودائرة الخصر والأعضاء الداخلية، عند طفل عادي في الخامسة من عمره. ولكن الأمر يغدو، حتى هنا، مختلفاً لوعي الإنسان. وتتميز البسيكلولوجية ، بسيكلولوجية المرض مثل بسيكلولوجية الجماعة، وبعكس التكوين الجسمي والفيزيولوجي بقدرة الاستيعاب الفائقة، و بالمرونة والمطاطية: وفي هذا بالذات يمكن أيضا التفوق الأرستقراطي للإنسان على أقرب أقاربه الحيوانيين من نوع القرود. إن الوعي القادر على الاستيعاب والمرن، يكسب "الأجسام" المسمة بـ الاجتماعية، كشرط ضروري للتقدم التاريخي، وبخلاف الأجسام الفاعلة أي البيولوجية، إمكانية فائقة في تغيير البنية الداخلية. فليس في تطور الأمم والدول، والدول الرأسمالية بالأخص، لا مشابهة ولا تماثل. فكثيراً ما تقارب وتراكب درجات مختلفة من الثقافة، وحتى في أقطابها، في حياة بلد واحد لا غير.

دعونا لا يغيب عن بألنا، أيها المستمعون الأعزاء، أن التأثر التاريخي مفهوم نسبي، وإن وجدت بلدان متأخرة وأخرى متقدمة، فهناك أيضاً تأثير متبادل فيما بينها. هناك ضغط البلدان المتقدمة على المتأخرة. وهنالك بالنسبة للبلدان المتأخرة ضرورة اللحاق بالمتقدمة، والاستعانة بتقنياتها وعلمها، الخ. هكذا ينبع نموذج مركب من التطور: فتقترن سمات تأثر باخر انجازات التقنية العالمية والفكر العالمي. وأخيراً فقد ينجم أحياناً على البلدان المتأخرة تاريخياً أن تتجاوز المتقدمة، في سبيل تخطي تأثرها.

إن مرونة الوعي الجماعي تمكّن في ظروف معينة من التوصل على الساحة الاجتماعية إلى النتيجة المسمة في مجال علم النفس الفردي بـ"التعويض". و بهذه المعنى باستطاعتنا القول أن ثورة أكتوبر شكلت بالنسبة لشعوب روسيا وسيلة بطولية من أجل تخطي نقصها الاقتصادي والثقافي الخاص.

و لكن فلننخط هذه التعميمات التاريخية-السياسية، التي قد تكون زائدة التجريد بعض الشيء، إلى طرح السؤال نفسه بشكل ملموس أكثر، أي من خلال الواقع الاقتصادية الحية. ويعبر

تأخر روسيا القرن العشرين عن نفسه على أوضاع صورة كالتالي: تختل الصناعة مكاناً ضئيلاً بالمقارنة مع القرية، وكذلك البروليتاريا مقابل الجماهير الفلاحية. وهذا بالإجمال يعني إنتاجية منخفضة للعمل القومي. ويكتفي القول بأن الدخل القومي عشية الحرب، عندما بلغت روسيا القيصرية أوج ازدهارها، كان من ثماني إلى عشر مرات أقل منه من الولايات المتحدة. إن هذا يعبر رقمياً عن "مدى" التأخير، هذا إذا كان ممكناً بوجه عام استعمال كلمة مدى بالنسبة للتأخر.

في الوقت نفسه يعبر قانون التطور المركب عن نفسه في المجال الاقتصادي عند أي خطوة، في الظاهرات البسيطة كما في الظاهرات المعقدة. لقد وجدت روسيا نفسها مضطرة إلى بناء خطوط حديدية، دون أن يكون لديها تقريباً طرق معدنة كبيرة. وقد انتقلت روسيا مباشرة إلى المؤسسات الممكنة دون أن تمر بالحرفية على الطراز الأوروبي والمانيفاكتوره. إن القفز عن المراحل الوسطية هو مصير البلدان المتأخرة.

كانت الصناعة في روسيا، إن لم يكن بطاقتها فعلى الأقل بنموذجها، في مستوى تطور البلدان المتقدمة وكانت تتجاوزها من نواح عديدة، بينما كان اقتصادها الزراعي في أماكن كثيرة في مستوى القرن السابع عشر. ويكتفي القول أن المؤسسات العملاقة التي تضم أكثر من ألف عامل كانت تشكل في الولايات المتحدة أقل من 18% من مجموع العمال الصناعيين مقابل أكثر من 41% في روسيا. ويصعب التوفيق بين هذا الواقع والمفهوم المبتذر لتأخر روسيا الاقتصادي. غير أنه مع ذلك لا يتناقض والتأخر بل يكمله ديكالتيكيًا.

و كانت بنية البلد الطبقية تحمل أيضاً نفس الطابع المتناقض. لقد صنع الرأسمال المالي الأوروبي الاقتصاد الروسي بوتيرة متسرعة. فاكتسبت البورجوازية الصناعية حالاً مذاك طابع الرأسمالية الكبيرة، عدوة الشعب. و زيادة على ذلك، كان أصحاب الأسهم الأجانب يعيشون خارج البلد. بينما كان العمال بالمقابل روسيا بالطبع. وهكذا أصبحت بورجوازية روسية ضعيفة عددياً لا تملك أية جذور قومية، بمواجهة بروليتاريا قوية نسبياً و تملك جذوراً قومية وعميقة في الشعب.

و ساهم في الطابع الثوري للبروليتاريا أن روسيا، وبالأضيـط بوصفها بلداً متأخراً و مضطـراً إلى اللحاق بـالأـخـصـامـ، لم تـكـنـ توصلـتـ إـلـىـ إـنـتـاجـ نـزـعـةـ مـحـافـظـةـ اـجـتمـاعـيـةـ أوـ سـيـاسـيـةـ خـاصـةـ بهاـ. إنـ أـقـدـمـ بـلـدـ رـأـسـمـالـيـ،ـ أيـ إـنـكـلـترـاـ،ـ يـؤـكـدـ ماـ سـبـقـ وـذـكـرـتـ،ـ بـوـصـفـهـ الـبـلـدـ الـأـكـثـرـ مـحـافـظـةـ فـيـ

أوروبا وحتى في العالم أجمع. وقد تكون روسيا البلد الأوروبي الأكثر تحررا من النزعة المحافظة.

إلا أن البروليتاريا الروسية الفتية، الندية، المليئة بالعزم، كانت ما فتئت لا تشكل إلا أقلية ضئيلة من الأمة. وكان احتياطي قوتها الثورية موجودا خارج البروليتاريا بالذات: في الفلاحين، الذين كانوا يعيشون في نصف قناعة، وفي القوميات المضطهدة.

## الفلحون

كانت المسألة الزراعية تشكل قاعدة الثورة. وكان نظام قنانة الدولة-المملكة القديم لا يحتمل بصورة مضاعفة في ظروف الاستغلال الرأسمالي الجديد. إن مجموع الأراضي الزراعية كان يحتل حوالي 140 مليون دسياتينية. وكان 20 ألفا من كبار المالكين العقاريين الذين يمتلك كل منهم كمعدل 2000 دسياتينية يحوزون على ما مجموع 70 مليون دسياتينية أي نفس ما تحوز عليه 10 ملايين عائلة فلاحية، أو 50 مليون نسمة تؤلف السكان الزراعيين. إن هذا الإحصاء للأرض كان بحد ذاته برنامجا كاملا للتمرد الفلاحي.

لقد كتب أحد النبلاء، بوبوركين، عام 1917 إلى حاجب الملك رودزيانكو رئيس آخر دوما للدولة، قائلا: "إنني ملاك عقاري ولا يطرق إلي أنني يتوجب على خسارة أرضي، وخاصة من أجل هدف لا يصدق، من أجل اختبار التعليم الإشتراكي" إنما مهمة الثورات هي بالضبط إنجاز ما لا يدخل في قناعة الطبقات السائدة.

في خريف 1917 بلغت الانتفاضة الفلاحية تقريريا البلاد كلها. فقد طالت الحركة، من أصل 621 مقاطعة لروسيا القديمة، 482 واحدة أي 77% منها. كان وهج حريق القرية يضيء ساحة الانتفاضة في المدن.

ولكنكم ستتعارضون قائلين أن الحرب الفلاحية ضد المالكين العقاريين هي أحد العناصر الكلاسيكية للثورة البرجوازية وليس أبدا للثورة البروليتارية !

و أنا أجيبي: ذلك صحيح تماما، هكذا كان في الماضي ! إنما عجز المجتمع البرجوازي عن الحياة في بلد متأخر تاريخيا هو بالضبط ما يعبر عنه بالذات أن الإنقاضة الفلاحية لا تدفع بالطبقات البرجوازية في روسيا إلى الأمام ولكنها على العكس ترميها نهائيا في معسكر الرجعية. وإذا لم يرد الفلاحون أن يغرقوا فلم يبق أمامهم شيء غير التحالف مع البروليتاريا الصناعية. لقد تنبأ لينين بصورة عبرية بهذا الوصل الثوري بين الطبقتين المضطهدتين، وهيا له طويلا.

لو تم حل المسألة الزراعية بشجاعة من قبل البرجوازية لما توصلت البروليتاريا الروسية، بالتأكيد، أبدا إلى استلام زمام السلطة (كلمات غير واضحة في الورقة الأصلية) بيد أن البرجوازية الروسية، التي جاءت متأخرة، والتي أصابها التداعي باكرا، والجشعة والجبانة، التي لم تجرؤ على أن ترفع يدها ضد الملكية الإقطاعية، هكذا سلمت السلطة للبروليتاريا وسلمتها في الوقت نفسه الحق في تقرير مصير المجتمع البرجوازي.

لتتحقق الدولة السوفيتية، كان ضروريا بالتالي الفعل المركب لعاملين من طبيعة تاريخية مختلفة: الحرب الفلاحية، أي حركة تميز بزوج التطور البرجوازي، والإنقاضة البروليتاريا التي تعلن غروب الحركة البرجوازية. وفي هذا بالذات يكمن الطابع المركب للثورة الروسية.

فليقف الدب الفلاحي مرة على قدميه الخلفيتين، وسيغدو مخيفا في غضبه. بيد أنه ليس بواسعه إعطاء سخطه تعبيرا واعيا. إنه بحاجة لقائد. وقد وجدت الجماهير الفلاحية المنتفضة للمرة الأولى في تاريخ العالم قائدا مخلصا في البروليتاريا.

4 ملايين عامل في الصناعة والمواصلات يقودون 100 مليون فلاح. تلك كانت النسبة الطبيعية الحتمية بين البروليتاريا وال فلاحين في الثورة.

## المسألة القومية

لقد شكلت الأمم المضطهدة، وهي أيضا على كل ذات تركيب فلاحي مهيمن، الاحتياطي الثوري الثاني للبروليتاريا. ويرتبط الطابع التوسيعى لنمو الدولة، التي تمتد كبقعة دهنية من المركز الموسكوبى حتى الدائرة الخارجية، ارتباطا وثيقا بتأخر البلاد التاريخي. إنها تخضع في الشرق شعوبا أكثر تأخرا أيضا، محاولة بالاستناد عليها أن تخنق بصورة أفضل القوميات الأكثر تطورا في الغرب. وانضم بالتتابع إلى العشر ملايين من الروس الذين كانوا يشكلون جمهور السكان الأساسي، 90 مليونا من "الدخلاء".

هكذا تكونت الإمبراطورية التي لم تكن الأمة المسيطرة تؤلف في تركيبها سوى 42% من السكان في حين كان 75% الباقون ينتمون إلى القوميات ذات ثقافة ونظم مختلفة. وكان الضغط القومي في روسيا أعنف بما لا يقاس منه في الدول المجاورة، والحق يقال ليس فقط بالنسبة للبلدان التي تقع في الطرف الآخر من الحدود الشرقية أيضا. مما أعطى المشكلة القومية قوة متفجرة هائلة.

لم تكن البورجوازية الليبرالية الروسية تريد، لا في المسألة القومية و لا في المسألة الزراعية، أن تتجاوز بعض التخفيفات في نظام الاضطهاد والعنف. وقد سارعت حكومات ميليكوف وكرنسكي "الديمقراطية" التي تعكس مصالح البورجوازية والبيروقراطية، خلال الأشهر الثمانية من وجودها، إلى إفهام الأمم المستاءة هذا الشأن بالضبط: لن تناولوا إلا ما ستنتزعونه بالقوة.

كان لينين قد أخذ بعين الاعتبار منذ وقت مبكر جدا حتمية نمو الحركة القومية التي تمثل إلى الانفلات عن المركز. وقد ناضل الحزب البلشفي طوال سنوات بعناد في سبيل حق الأمم في تقرير مصيرها، أي في سبيل الحق في تشكيل دولة منفصلة كلية. ولم تنجح البروليتاريا الروسية شيئا فشيئا في كسب ثقة الشعوب المضطهدة إلا من خلال هذا الموقف الجريء تجاه المسألة القومية. وقد استدارت حركة التحرر القومي، ومثلها أيضا الحركة الفلاحية، بطبيعة الحال في وجه الديمقراطية الرسمية، معززة البروليتاريا ومندفعة في تيار انتفاضة أكتوبر.

## الثورة الدائمة

هكذا يتضح لنا، شيئاً فشيئاً، لغز الانتفاضة البروليتارية في بلد متاخر تاريخياً.

لقد توقع الثوريون الماركسيون قبل وقوع الأحداث بوقت طويل سير الثورة و الدور التاريخي للبروليتاريا الروسية الفتية. وقد يسمح لي بأن أقدم هنا مقتطفات من كتابي الخاص حول سنة 1905:

"يمكن للبروليتاريا في بلد أكثر تأخراً من الناحية الاقتصادية أن تستلم السلطة قبلها في بلد رأسمالي متقدم..."

"إن الثورة الروسية ستخلق... الظروف التي يمكن للسلطة معها (و مع انتصار الثورة يجب عليها) المرور إلى أيدي البروليتاريا قبل أن يتسعى لسياسة الليبرالية البورجوازية إظهار براعتهم كاملة كرجال دولة."

"... يرتبط مصير المصالح الثورية الأولى للفلاحين... بمصير الثورة، أي بمصير البروليتاريا. المستلمة للسلطة ستظهر للفلاحين كالمحرر الطبي."

"و تدخل البروليتاريا إلى الحكومة كممثلة للأمة، كقائد معترف به من قبل الشعب المناضل ضد الحكم المطلق و ضد بربرية الفنانة..."

"ويستوجب على النظام البروليتاري منذ البداية أن يسعى لحل المسألة الزراعية التي ترتبط بها مسألة مصير جماهير شعبية غفيرة في روسيا."

لقد أجزت لنفسي أن أتقدم بهذا الاستشهاد، لأنظهر أن نظرية ثورة أكتوبر كما أقدمها اليوم ليست ارتجالاً سريعاً ولم توضع لاحقاً في إثر ضغط الأحداث. لا، بل أنها طرحت بشكل تكهن سياسي قبل انتفاضة أكتوبر بزمن طويل. إنكم توافقون على أن النظرية لا قيمة لها بصورة عامة إلا بقدر ما تساعده في توقع مجرى التطور وفي التأثير عليه نحو أهدافها. وفي هذا بالذات تكمن، إذا تكلمنا بشكل عام، أهمية الماركسية التي لا تقدر بثمن، كسلاح للتوجه

الإجتماعي والتاريخي. وأنني آسف لأن الإطار الضيق للعرض لا يسمح لي بتوسيع الاستشهاد السابق، ولذا فسأكتفي بتلخيص موجز لكل كتاب سنة 1905.

إن الثورة الروسية هي من حيث مهمتها المباشرة ثورة برجوازية. ولكن البرجوازية الروسية معادية للثورة. وبالتالي فليس انتصار الثورة ممكنا إلا كانتصار للبروليتاريا. لكن البروليتاريا المنتصرة لن تتوقف عند برنامج الديموقراطية البرجوازية، بل ستنتقل إلى تحقيق برنامج الإشتراكية. وستصبح الثورة الروسية المرحلة الأولى للثورة الإشتراكية العالمية.

هذه كانت نظرية الثورة الدائمة التي وضعتها في سنة 1905 والتي تعرضت مذاك لأذع النقد تحت إسم "التروتسكية".

و بكلام أفضل: ليس هذا إلا جزءا من هذه النظرية. أما الجزء الآخر وهو الآن شديد الحالية، فيقول:

لقد تجاوزت القوى المنتجة الحالية الحدود القومية منذ وقت طويلا. ولا يمكن تحقيق المجتمع الإشتراكي في داخل الحدود القومية. ومهما بلغت من الأهمية النجاحات الاقتصادية لدولة عمالية معزولة، فإن برنامج "الاشتراكية في بلد واحد" يبقى طوباويه برجوازية صغيرة. ووحده يستطيع اتحاد أوروبي، ثم عالمي، للجمهوريات الإشتراكية، أن يشق الطريق لمجتمع إشتراكي متناسق.

و إنني اليوم وبعد اختبار الأحداث أجد أقل من أي وقت مضى أسبابا تجبرني على التراجع عن هذه النظرية.

هل من الضروري، بعد كل الذي قيل، أن نتكلف عناء تذكير الكاتب الفاشي مالابارت الذي ينسب إلى تكتيكاً مستقلاً عن الإستراتيجية وناتجاً عن وصفات انتقاضية تقنية، قابلة دوماً للتطبيق، وفي كل مكان؟ إنه على الأقل جيد أن اسم المنظر التعيس للإنقلاب يسمح بتمييزه دون عناء عن الممارس المظفر للإنقلاب: فلا يخشى هكذا أن يخلط أحد بين مالابارت وبونابرت.

دون انتقاضة 7 تشرين الثاني 1917 المسلحة لما وجدت الدولة السوفياتية. و لكن الإنقاضة نفسها لم تهبط من السماء. لقد استوحيت ثورة أكتوبر جملة من المقدمات التاريخية.

1) تعفن الطبقات السائدة القديمة من نبلاء وسلطة ملكية وبيروقراطية.

2) الضعف السياسي للبرجوازية التي كانت لا تملك أية جذور في الجماهير الشعبية.

3) الطابع الثوري لمسألة الزراعية.

4) الطابع الثوري لمشكلة القوميات المضطهدة.

5) الثقل الاجتماعي المهيّب للبروليتاريا.

ويجب أن تضاف إلى هذه المقدمات العضوية شروط ظرفية في غاية الأهمية:

6) كانت ثورة 1905 المدرسة الكبيرة، أو حسب تعبير لينين "التجربة العامة" لثورة 1917 وقد تكونت السوفياتيات كشكل تنظيمي، لا بديل عنه، للجبهة البروليتارية الموحدة في الثورة، للمرة الأولى سنة 1905.

7) زادت الحرب الإمبريالية من حدة كل التناقضات وانتزعت الجماهير المختلفة من حالة جمودها، مفسحة المجال لبروز طابع الكارثة العظيم.

ولكن جميع هذه الشروط التي كانت كافية تماماً لاندلاع الثورة، كانت لا تكفي لتأمين انتصار البروليتاريا في الثورة. ومازالت هناك شرط ضروري لهذا الانتصار:

#### 8) الحزب البلشفي.

و إذا عدلت هذا الشرط كآخر في السلسلة فذلك ليس إلا لأنه يشكل الإستنتاج المنطقى، لأننى أعطى الحزب المكان الأقل أهمية.

كلا، فإنني شديد البعد عن هذه الفكرة. إن البروجوازية الليبرالية تقدر، هي، على استلام السلطة نتيجة لنضالات لم تدخل فيها طرفاً منازعاً، وقد سبق وتم ذلك عدة مرات: فهي تمتلك في هذا السبيل أجهزة لفهم متطرفة تمام التطور. بيد أن جماهير الشغيلة تعيش في وضع مختلف، وقد عودت أن تعطي لا أن تأخذ. إنها تمضي في العمل بصبر طالما الأوضاع غير متربدة، وتأمل، ثم تفقد صبرها، وتتنفس، وتقاتل، وتموت، وتأتي بالانتصار للآخرين، وتخدع، وتهون عزيمتها، وتحنى رؤوسها ثانية وتعود إلى العمل من جديد. هذا هو تاريخ الجماهير الشعبية في ظل كل الأنظمة. وإن البروليتاريا تحتاج من أجل استلام السلطة إلى حزب يتجاوز سائر الأحزاب الأخرى بأشواط من حيث وضوح تفكيره وعزمه الثوري.

كان حزب البلاشفة، الذي وصف أكثر من مرة وبحق بأنه الحزب الأكثر ثورية في تاريخ الإنسانية، كان التركيز الحي لتاريخ روسيا الجديد، وكل ما كان ديناميكياً فيه. وأن سقوط النظام الملكي كان قد غداً منذ فترة طويلة الشرط المسبق لتطور الاقتصاد والثقافة. ولكن القوى التي كان عليها أن تقوم بهذه المهمة كانت مفقودة. أمام الثورة، كان الرعب ينتاب البروجوازية. وحاول المتفقون إيقاف الجماهير الفلاحية على رجلها. غير أن "الموجيكي"، لعجزه عن تعميم همومه وأهدافه الخاصة، ترك هذا الحض دون صدى. فتساحت الانتليجنسيا بالдинاميت. وقد استهلك جيل بكامله قواه في هذا الكفاح.

قام ألكسندر أوليانوف في أول مارس (آذار) 1887 بتنفيذ آخر الإغتيالات الإرهابية الكبيرة، وفشل محاولة اغتيال ألكسندر الثالث. وشنق أوليانوف والمشاركون الآخرون. لقد أفلست محاولة استبدال الطبقة الثورية بمستحضر كيميائي. وحتى الانتليجنسيا الأكثر بطولة ليست شيئاً دون الجماهير. وتحت الانطباع المباشر لهذه الواقع واستنتاجاته الخاصة، شب وتكون أخ أوليانوف الأصغر، فلاديمير، لينين الغد، وأكبر وجه في تاريخ روسيا. ومنذ أول شبابه

التزم لينين بالماركسية وتوجه نحو البروليتاريا. ودون أن يغيب القرية ولو للحظة عن نظره، بحث عن السبيل نحو الفلاحين من خلال العمال. وقد غدا لينين في سنتين معلماً للجيل المثقف الجديد وللعمال المتقدمين، وارثاً عن سابقيه الثوريين العزم والقدرة على التضحية، والاستعداد على السير حتى النهاية. واكتسب العمال في النضالات الإضرابية وفي الشوارع، وداخل السجون وفي المنفى الجبلة الازمة. وكان ضوء الماركسية الكاشف ضرورياً لإضاءة طريقهم التاريخية في ظلمة الأوتوقراطية.

نشأ سنة 1883 وفي المهجـر، أول تجمع ماركسي. وفي اجتماع سري تم سنة 1898 إعلان إنشاء الحزب الإشتراكي-الديمقراطي العمالي الروسي (كنا ندعى بأجمعنا في ذلك الوقت اشتراكيين-ديمقراطيين). وجرى سنة 1903 الإنشقاق بين البلاشفة والمناشفة. وفي سنة 1912 غدا التكتل البلشفي نهائياً حزباً مستقلاً.

لقد علم على امتداد اثنى عشر عاماً (1905-1917) كيف التعرف على الآلية الطبقية للمجتمع في النضالات، وفي أحداث عظيمة. وكون كوادر قادرة على المبادرة بمثل قدرتها على الطاعة. وكان انضباط العمل الثوري يستند على وحدة العقيدة، وعلى تقاليد النضالات المشتركة—— بقيادة مجزبة.

هكذا بدأ الحزب سنة 1917. وبينما كان "الرأي العام" الرسمي، وأطنان أوراق الصحافة المثقفة تقلل من قيمته، كان الحزب يتوجه حسب حركة الجماهير. كان يقبض بحزم على زمام الأمر في المعامل والفيالق وكانت الجماهير الفلاحية تتوجه أكثر فأكثر نحوه. وإن عنينا بكلمة أمة أغلبية الشعب، أي العمال والفلاحين، وليس الرؤوس ذات الامتيازات، فتكون البلشفية قد أصبحت في غضون سنة 1917 الحزب الروسي القومي الفعلي.

وفي سنة 1917، أعطى لينين، المرغم على التخفي، الإشارة: "إن الأزمة ناضجة، وساعة الإنقاذة تقترب". وكان على حق، فحيال مشكلات الحرب و التحرر القومي كانت الطبقات السائدة قد وقعت في طريق مسدود. وفقدت البرجوازية نهائياً رباطة جأشها. وأزالت الأحزاب الديموقراطية، المناشفة والاشتراكيون الثوريون، آخر ما تبقى من ثقة للجماهير بها، بدعمها الحرب الإمبريالية بسياسة التسويات العاجزة والتنازلات للملوك البرجوازيين والإقطاعيين. ولم يعد الجيش المستيقظ مستعداً للنضال في سبيل أهداف الإمبريالية الغربية عنه. وطرد الفلاحون المالكين العقاريين من أراضيهم، دون إعارة اهتمام للنصائح

الديمقراطية. ونهضت الدائرة الخارجية القومية المضطهدة في الإمبراطورية ضد بيروقراطية بطرسبورغ. و كان البلاشفة يسيطرون على أكثر مجالس العمل والجنود أهمية. كان العمال والجنود يطالبون بالأفعال. كان الجراح قد استوى. واستوجب القيام بضربة مبضع.

لم تصبح الإنفاضة ممكناً إلا في هذه الظروف الاجتماعية والسياسية. و كانت كذلك محتمة. لكن لا مجال للمزاح بقصد الإنفاضة المسلحة. والويل للجراح الذي يستعمل الموضع دونما انتباه. إن الإنفاضة فن. ولها قوانينها وقواعدها.

لقد حقق الحزب إنفاضة أكتوبر بحساب بارد وعزم حاد. وبفضل هذا بالضبط انتصرت الثورة تقريباً دون ضحايا. وتولى البلاشفة عبر السوفويات الظافرة قيادة البلد الذي يشتمل على سدس المساحة الأرضية.

يفترض أن أغلبية المستمعين إلى اليوم لم يتعاطوا السياسة مطلقاً في سنة 1917. وهذا لمستحسن. أن أمّا الجيل الشاب الكثیر من الأشياء المفيدة، و لكن أمّا أيضاً أشياء ليست دوماً سهلة.

لكن ممثلي الأجيال القديمة في هذه الحالة سيذكرون جيداً وبالتأكيد كيف استقبل استيلاء البلاشفة على السلطة: كظرفة، كسوء تفاهم، كفضيحة، وفي أغلب الأحيان ك Kapoor سيزول عند أول شعاع شمسي. فلن يطيل البلاشفة البقاء أكثر من 24 ساعة، أكثر من أسبوع، أكثر من شهر، ثم سنة. وتوجب دوماً إرجاء المهل أكثر... وكان أسياد العالم أجمع يسلحون أول دولة عمالية: بإطلاق الحرب الأهلية، بتدخلات تتجدد باستمرار، وبالحصار الاقتصادي. وهكذا مرت السنة تلو الأخرى. وفي هذه الأثناء كان التاريخ يسجل 15 عاماً من وجود السلطة السوفيتية.

وقد يجيب أحد الأخصام: نعم، إن مغامرة أكتوبر بدت أكثر صلابة بكثير مما قد اعتقد الكثيرون بيننا، ما الذي تم إحرازه بهذا الثمن المرتفع لهذه الدرجة؟ لعله قد تحققت تلك المهام البراقة التي دعا إليها البلاشفة عشية الإنفاضة؟ فلننشر قبل الإجابة على الخصم المفترض إلى أن السؤال بحد ذاته ليس جديداً. إنه، بعكس ذلك يلحق بخطى ثورة أكتوبر منذ يوم ولادتها.

لقد سبق للصحافي الفرنسي كلود آني الذي كان يمضي فترة في بتروغراد أثناء الثورة أن كتب منذ 27 أكتوبر 1917: "لقد استلم القصويون (هكذا كان الفرنسيون يدعون البلاشفة) السلطة وحان اليوم الكبير. وقلت لنفسي سأشهد أخيراً تحقيق فردوس الإشتراكية الذي يدعونا به منذ كل هذه السنوات... يالها من مغامرة شيقة ! ومن موقف متميز ! الخ، الخ.. وهكذا دواليك. أية كراهية صريحة تخفيها هذه التحيات الساخرة ! يسرع الصحافي الرجعي، منذ غدأة الاستيلاء على قصر الشتاء، إلى الإعراب عن ادعاءاته في الحصول على بطاقة دخول إلى الفردوس. وقد مضت على الإنقاضة 15 سنة. ويعبر الأحصام، بتكلف يزداد قلة مع مضي الوقت، عن سرورهم الخبيث من أن بلاد السوفيات ما زالت اليوم أيضاً بعيدة عن أن تشبه مملكة رفاهية شاملة. فلم الثورة إذن ولم الضحايا ؟

### حاصل أكتوبر

إنني أسمح لنفسي، أيها المستمعون الأعزاء، بأن أعتقد أن تناقضات النظام السوفيتي وصعوباته وأخطاءه ونواقصه ليست معروفة لدى أقل من أي كان. وأنا شخصياً لم أسعى فقط إلى إخفائها، لا في الكلام ولا في الكتابة. وقد اعتقدت وأعتقد أن السياسة الثورية - بخلاف المحافظة - لا يمكن بناؤها على التمويه. وعلى أعلى مبدأ للدولة العمالية أن يكون: "التعبير عن الموجود".

ولكن في النقد كما في العمل الخلاق، يجب أن توجد آفاق. فالذاتية موجه سيئ، خاصة في المسائل الكبرى. ويجب تكيف المهل على المهام لا تبعاً للأهواء الفردية. خمسة عشر عاماً ! ما هي بالنسبة لحياة واحدة ؟ خلال هذه الفترة، ثم دفن العديد من جيلنا، وتضاعفت الشعارات البيضاء لدى الباقين. ولكن هذه السنين الخمسة عشر بالذات ! أية حقبة ضيقة تمثل في حياة شعب ! إنها ليست أكثر من دقيقة على ساعة التاريخ.

احتاجت الرأسمالية إلى قرون لتثبت في نصالها ضد القرون الوسطى، ولرفع العلم والتقنية، وإنشاء السكك الحديدية ومد الخطوط الكهربائية. وماذا بعد ذلك ؟ بعد ذلك ؟ بعد ذلك رمي بالإنسانية من قبل الرأسمالية في جحيم الحروب والأزمات ! أما الإشتراكية، فلا يمهلها أخصامها، أي أنصار الرأسمالية، إلا عقداً ونصف حتى تقيم على الأرض الجنة وكل النعيم. كلا، إننا لم نأخذ على

عاتقنا مثل هذه الواجبات. ولم نحدد مهلاً كهذه. يجب قياس سيرورات التحولات الكبيرة بمقاييس يلائمها. وإنني لا أعلم ما إذا كان المجتمع الإشتراكي سيشبه جنة التوراة. لا بلأشك بذلك كثيراً. غير أنه ليس هنالك بعد في الإتحاد السوفياتي اشتراكية. وتسسيطر فيه الآن حالة انتقالية، مليئة بالتناقضات، ومتقلة بإرث الماضي، بالإضافة إلى تعرضها لضغط الدول الرأسمالية العدائي. لقد قامت ثورة أكتوبر بإعلان مبدأ المجتمع الجديد. ولم تظهر الجمهورية السوفياتية إلا الطور الأول لتحقيقه. إن أول مصباح كهربائي لأديسون كان شديد السوء. علينا أن نميز المستقبل، تحت أخطاء وأغلاط أول بناء اشتراكي.

### والمصائب التي تحل بالكائنات الحية؟

فهل يا ترى تبرر نتائج الثورة الضحايا التي تسببها؟ إنه سؤال عقيم و عميق التصنّع: فكأن سيرورات التاريخ لها علاقة بخطة محاسبة! وفي وجه صعوبات وما سي الوجود الإنساني يمكن بالقدر نفسه من الحق التساؤل: وهل يستحق الأمر فعل الوجود على الأرض؟ لقد كتب ليينين في هذا الصدد: "و ينتظر الأحمق جوابا..." لم يمنع التأملات السوداوية الإنسان من الإنجاب والولادة. وحتى في هذه الأيام في أزمة عالمية لا مثيل لها، تشكل الإنتحارات لحسنحظ نسبة غير مرتفعة. ولكنه ليس من عادة الشعوب أن تلجأ إلى الإنتحار. إنها تبحث عن مخرج من الأعباء غير المحمولة بالثورة. وعلاوة على ذلك، من الذي يسخط بشأن ضحايا الثورة الاشتراكية؟ إنها في اغلب الأحيان أولئك الذين أعدوا ضحايا الحرب الإمبريالية ومجدهم، أو على الأقل الذين توافقوا معها بسهولة كبيرة. وسنسأل بدورنا: هل كانت الحروب مبررة؟ ما الذي أعطته؟ وما الذي علمته؟

يصف المؤرخ الرجعي هيبو ليت تاين في مجلداته الأحد عشر من الإفتراء على الثورة الفرنسية الكبرى، وليس بدون سرور خبيث، معاناة الشعب الفرنسي في سنوات الدكتاتورية اليعقوبية والسنوات التي تلتها. وكانت هذه السنين شاقة بوجه خاص بالنسبة لشراح المدن الدنيا، عامة الشعب الفقير، التي منحت الثورة بوصفها من "اللامتسرولين" أفضل ما عندها. وكان هؤلاء أو نسائهم يفضلون ليال باردة في صفوف ينتظرون، ليرجعوا إلى منازلهم صفراليدين. وغدت باريس بعد عشرة أعوام من الثورة أفقـر مما كانت عليه قبل انطلاقـها. ويستخدم

تاین وقایع انتقاها بعنایه، وجمعها اصطناعیاً لتدعم حکمه الهدام ضد الثورة. أترون، أراد العامة أن يلعبوا دور الديكتاتوريات وألقوا بأنفسهم في البؤس.

يصعب تصور أخلاقي أكثر تقاهة: أولاً، إذا رمت الثورة البلد في البؤس فمسؤولية ذلك تقع في المقام الأول على الطبقات الحاكمة التي دفعت بالشعب نحو الثورة. وثانياً، لم تنهك الثورة الفرنسية الكبرى في صفوف جائعة أمام الأفران. إن فرنسا الحديثة كلها، ومن نواح معينة، كل الحضارة الحديثة خرجت من حمام الثورة الفرنسية.

لقد سقطت خمسون ألف ضحية أثناء الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، خلال السنة الستين من القرن الماضي. فهل تبرر هذه الضحايا؟

الجواب هو من وجهة نظر أنصار الرق الأمريكيين والطبقات السائدة في بريطانيا العظمى - لا ومن وجهة نظر الزنجي والعامل البريطاني - تماماً! ولا يمكن أيضاً الشك في الجواب من وجهة نظر الإنسانية عامة. لقد انبثقت من الحرب الأهلية لسنة 1960 الولايات المتحدة الحالية بما تحمله من مبادرة عملية جامحة، وتقنية عقلانية، واندفاع اقتصادي. وعلى هذه المكتسبات للأمريكية ستشيد الإنسانية المجتمع الجديد.

توغلت ثورة أكتوبر بعمق أكثر من أي ثورة تقدمتها في أقدس أقدس المجتمع، في علاقات الملكية. وأنه لمن الضروري مهل أطول بذلك القدر حتى تظهر النتائج الخلاقة للثورة في كل ميادين الحياة. لكن قد توضح منذ الآن الاتجاه العام للانقلاب، ليس للجمهورية السوفيتية أي دافع لإحناء رأسها أمام متهميها الرأسماليين، وللتكلم بلغة الاعتذار.

لتقدم النظام الجديد من وجهة نظر التطور الإنساني علينا الإجابة أولاً على السؤال التالي: بم يتجلّى التقدم الاجتماعي، كيف يمكن قياسه؟

إن أكثر المقاييس موضوعية وعمقاً وعدم قابلية للجدل هو التقدم الذي يمكن قياسه بنمو إنتاجية العمل الاجتماعي. ومن هذا المنظار، فإن التجربة تعطينا منذ الآن تقييم ثورة أكتوبر. لقد أظهر مبدأ التنظيم الإشتراكي لأول مرة في التاريخ قدرته بإعطائه نتائج في الإنتاج لم يتم التوصل إليها سابقاً في حقبة قصيرة من الزمن. في أرقام الفهارس الإجمالية، يظهر منحنى التطور الصناعي لروسيا كالتالي: لنأخذ العدد 100 لسنة 1913، وهي السنة الأخيرة قبل اندلاع

الحرب 10 عام 1920 قمة الحرب الأهلية، هو أيضاً أسفلاً نقطة بالنسبة للصناعة: فقط 25% أي ربع إنتاج ما قبل الحرب الأهلية، ووصل نمو الإنتاج حتى عام 1925 إلى 75، أي حتى ثلاثة أربع ما كان قبل الحرب. وسنة 1929، بلغ حوالي 200. وفي 1922، بلغ حوالي 300. أي ثلاثة أضعاف ما كان عليه عشية الحرب.

وبيدو الجدول أكثر وضوحاً أيضاً على ضوء الفهارس الدولية. فقد انخفض إنتاج ألمانيا الصناعي من 1925 إلى 1932 حوالي مرة ونصف، وفي الولايات المتحدة حوالي مرتين. أما في الاتحاد السوفييتي فقد ارتفع إلى أكثر من ضعفي ما كان عليه. إن الأرقام بلغة بحد ذاتها.

وإنني لا أهدف قط إلى إخفاء الجوانب المظلمة في الاتحاد السوفييتي. وأن نتائج الفهارس الصناعية لمتأثرة تأثراً فائقاً بالتطور غير المؤاتي لل الاقتصاد الزراعي، أي للميدان الذي لم يتوصل بعد إلى ابتلاء الطرق الاشتراكية، بل جر في الوقت نفسه في طريق التجميع دون تحضير كافٍ، وتم ذلك بطريقة بيروقراطية أكثر منه على أساس تقنية واقتصادية. إن هذه لمسألة كبيرة لكنها تتجاوز إطار محاضرتى هذه.

وتسودي أرقام المؤشرات المعروضة أيضاً تحفظاً أساسياً. إن نجاحات التصنيع السوفييتي التي لا تتكرر والباهرة من جهة معينة تستلزم تحقيقاً اقتصادياً لاحقاً من وجهة نظر الانسجام المتبادل بين مختلف عناصر الاقتصاد، وتوازنه الديناميكي، وبالتالي قدرتها المردودية. إن صعوبات كثيرة وحتى تراجعات مازالت لا مفر منها. والاشراكية لا تخرج في صيغتها المكتملة من الخطة الخمسية كما تخرج ميرفا من رأس جوبير أو فينوس من زبد البحر. وما زلنا الآن أمام عقود من العمل الدؤوب، ومن الأخطاء، والتحسينات وإعادة البناء. وعلاوة على ذلك، لا يجب أن يغيب عن باليانا أن التشيد الاشتراكي، من حيث جوهره، لا يمكن أن يصل إلى استكماله إلا على الساحة الدولية. بيد أنه حتى الحاصل الاقتصادي الأكثر سوءاً للنتائج المحرزة حتى الآن، لا يمكنه أن يظهر إلا عدم صحة المعطيات وأخطاء الخطة وأغلاط القيادة، ولا يمكنه مناقضة الواقع المحقق تجريبياً، واقع امكانية رفع إنتاجية العمل الجماعي إلى مستوى لم يوجد قبل، بواسطة طرق اشتراكية. وهذا المكسب ذو الأهمية التاريخية العالمية، لن يقوى أحد على انتزاعه منا.

و أننا بعد الذي قيل، لن نتكلف عناء إطالة الحديث عن الشكاوى القائلة بأن ثورة أكتوبر أدت إلى تقهقر الثقافة في روسيا. هذا ---- الطبقات الحاكمة والصالونات القلقة. إن "الثقافة" ---- الأرستقراطية التي أطاحت بها الثورة البروليتارية لم تكن سوى شبه --- للبربرية. وفيما كان يستحيل على الشعب الروسي الوصول إليها، لم تكن تأتي إلا بالقليل الجديد إلى كنز الإنسانية.

و لكن علينا أيضا، بصدق هذه الثقافة التي تتدبها الهجرة البيضاء إلى هذا الحد، أن نوضح السؤال التالي: في أي معنى تم القضاء عليها؟ لقد تم ذلك في اتجاه واحد: قضى على احتكار خيرات الثقافة من قبل أقلية صغيرة. ولكن كل ما يمت فعلا بصلة للثقافة في الثقافة الروسية القديمة بقي دون أن يمس. إن برابرة البلاشفية لم يدوسووا على مكتسبات الفكر ولا على تحف الفن. وعلى عكس ذلك فقد جمعوا بعناية آثار الإبداع البشري ورتبوها بشكل مثالى. والآن غدت ثقافة الملكية والنبلاء والبرجوازية ثقافة المتاحف التاريخية.

إن الشعب يندفع في زيارة هذه المتاحف. ولكنه لا يحيا في المتاحف. إنه يتعلم. وبيني. إن قيام ثورة أكتوبر بتعليم الشعب الروسي، وعشرات شعوب روسيا القيصرية، القراءة والكتابة، هذه أعلى بما لا يقاس من كل الثقافة الروسية الغابرة الحبيسة في وأم.

لقد أرسست ثورة أكتوبر أساس ثقافة جديدة موجهة للجميع لا لنخبة فقط وتحس بذلك جماهير العالم أجمع. وهذا الذي يفسر تعاطفها مع الإتحاد السوفييتي، الحاد مثل حدة الكراهية التي كانت قدימה تحملها ضد روسيا القيصرية.

أيها المستمعون الأعزاء، إنكم تدركون أن لغة الإنسان تمثل أداة لا غنى عنها، ليس فقط لتسمية الأحداث بل لتقديرها أيضا. فهي تتشرب الحقيقي، و تميزه وتجمع شتاته، بأقصى العرضي والعاير والاصطناعي. فلاحظوا بأية حساسية ميزت لغات الأمم المتحضرة عنصرين في تطور روسيا لقد أنتـ الثقافة الأرستقراطية إلى العالم ببربريات كـ"القصر والكولاك والبوغروم والنغايكا". هنا يصدر علم اللغات العملي حكمه التاريخي الأعلى !

يكمن أعمق معنى لكل ثورة، في أنها تقولب وتسقي الطبع الشعبي. إن تصور الشعب الروسي كشعب بطيء وسلبي ومكتئب وغبي هو تصور شائع جدا، وليس ذلك صدفة. فإن له جذورا في الماضي. ولكن إلى وقتنا الحاضر، لم تؤكد هذه التبدلات العميقة التي أدخلتها الثورة في

طبع الشعب بعين الاعتبار بصورة كافية في الغرب. وهل كان ممكناً أن يكون الأمر بخلاف ذلك؟

يمكن لأي إنسان ذو خبرة في الحياة، أن يستعيد في ذاكرته صورة مراهق ما يعرفه – كان سريعاً الإنفعال، وجدانياً، وأخيراً عاطفياً – وأصبح فيما بعد، مرة واحدة، وبفعل صدمة نفسية قوية، أقوى وأصلب ويصعب التعرف عليه. إن الثورة تتجزء في تطور أمة بأسرها تبدلات نفسية من هذا النوع.

انتفاضة شباط ضد الأوتوقراطية، النضال ضد النبلاء، ضد الحرب الإمبريالية، في سبيل السلم، وفي سبيل الأرض، وفي سبيل مساواة القوميات، انتفاضة أكتوبر، ثلاثة سنين من الحرب الأهلية على امتداد جبهة من 8000 كلم، سنوات الحصار والبؤس والمجاعة والأوبئة، إنها مدرسة قاسية لكنها مفيدة. وقد تحطم مطرقة ثقيلة الزجاج، ولكنها تصنع الفولاذ. وإن مطرقة الثورة تصنع فولاذ طبع الشعب.

"من سيصدق ذلك؟" كان يجب تصديقه من ذلك الزمن أن---، أحد الجنرالات القيصريين، كان يتعجب بعد الإنفاضة بقليل من أن "بواباً أو حارساً يصبح دفعه واحدة رئيس لمجلس القضاء، وممراضاً مدير مستشفى، وحلاقاً صاحب رتبة عالية في الدولة، وملازماً في البحريية قائداً أعلى، وصحفياً رئيس بلدية، وحداداً رئيس مؤسسة".

"من سيصدق ذلك؟" كان يجب تصديقه من ذلك الزمن. ولم يكن على كل ممكناً عدم تصديق ذلك، حين كان الملازمون يلحقون الهزيمة بالجنرالات، ورئيس بلدية، الصناعي سابقاً، يحطم مقاومة البيروقراطية القديمة، والمستخدم الصغير يعيد ترتيب شؤون النقل، والحاداد بوصفه مديرًا يعزز الصناعة "من سيصدق ذلك؟" فليحاول أحد فقط عدم تصديقه.

إن عدد كبير من المراقبين الأجانب، لتفسيير الصبر غير الاعتيادي الذي أظهرته الجماهير الشعبية في الاتحاد السوفييتي في سنوات الثورة، يستعين جرياً على عادة قديمة بسلبية الطابع الروسي. يا للمغالطة التاريخية الفظة! لقد تحملت الجماهير الثورية الحرمانات بصبر ولكن ليس سلبياً. إنها تشيد بأيديها مستقبلاً أفضل وتريد خلقه مهما كلفها الثمن. فليحاول العدو الطبعي محاولة فقط ليفرض إرادته من الخارج على هذه الجماهير الصبرة! كلاً، من المستحسن له أن لا يحاول!

و بالخلاصة، لنا حاول تحديد ثورة أكتوبر ليس في تاريخ روسيا فحسب بل في تاريخ العالم. خلال سنة 1917 ، وفي غضون 8 أشهر ، التقى منحنينان تاريخيان. إن ثورة شباط – ذلك الصدى المتأخر للنضالات الكبيرة التي جرت في القرون الماضية فوق أراضي هولندا وإنجلترا وفرنسا وفي كل أنحاء أوروبا القارية تقريباً – ترتبط بسلسلة الثورات البورجوازية. أما ثورة أكتوبر فتعلن سيطرة البروليتاريا وتفتحها. إن الرأسمالية العالمية هي التي تتلقى فوق أرض روسيا أول هزيمة كبيرة لها. لقد انقطعت السلسلة عند حلقتها الأضعف. ولكن ما انقطع هو السلسلة وليس الحلقة فقط.

## نحو الاشتراكية

إن الرأسمالية كنظام عالمي قد انتهت عهدها تاريخياً. لقد توقفت عن أداء مهمتها الأساسية برفع مستوى القوة الإنسانية والغنى الإنساني. ولا يمكن للإنسانية أن تركد عند الدرجة التي توصلت إليها. وحده رفع قوى لمستوى القوى المنتجة وتنظيم صحيح ومخطط، أي اشتراكي، للإنتاج والتوزيع، يمكنه أن يوفر للبشر – كل البشر – مستوى معيشة محترماً وأن يعطيهم في الوقت نفسه الإحساس النفسي بالحرية حيال اقتصادهم الخاص. الحرية من نوعين من النواحي: أولاً: لن يبقى خاضعاً لقوانين السوق، أي للقوى العمياء التي تشيد من ورائه. إنه يتولى تشيد اقتصاده بحرية، تبعاً لمخطط، والبركار في يده. ويتعلق الأمر هذه المرة بتصوير التركيب الجسمي للمجتمع بالأشعة، واكتشاف كل خفاياه وإخضاع كل وظائفه إلى عقل الإنسان الجماعي و إرادته. وبهذا المعنى على الإشتراكية أن تغدو مرحلة جديدة من النمو التاريخي للإنسانية. لقد بدت الطبيعة كلها بالنسبة لسلفنا الذي تسلح لأول مرة بفأس حجرية كمكيدة قوة غامضة ومعادية. ومذاك أضاءت العلوم الطبيعية بالتعاون مع التكنولوجيا العلمية الطبيعية حتى أحوال أعمقها. ويعطي الفيزيائي الآن، بواسطة الطاقة الكهربائية، حكمه على النواة الذرية. ولم تعد بعيدة، الساعة التي سيحل فيها العلم، كاللعل، مهمة химикаء، محولاً الزبل إلى ذهب، والذهب إلى زبل. وحيث كانت تهوج أبالسة الطبيعة وجنياتها تسود الآن بشجاعة دائمة التقدم إرادة الإنسان الحاذقة.

و لكن فيما ناضل الإنسان بنجاح ضد الطبيعة، فإنه شيد بعمى علاقته مع البشر الآخرين، تقريبا كالنحل أو النمل. وتطرق بتأخر وبالكثير من التردد إلى مشاكل المجتمع الإنساني. فبدأ بالدين لينتقل من ثم إلى السياسة. ومثلت حركة الإصلاح أول انتصار للفردية والعقلانية الborjouazietin في ميدان سادت فيه تقاليد ميتة. ثم انتقل الفكر النقدي من الكنيسة إلى الدولة. وكبرت عقيدة السيادة الشعبية وحقوق الإنسان والمواطن، التي ولدت في النضال ضد الحكم المطلق والظروف القروسطية. و هكذا تشكل نظام البرلمانية، ودخلت النظرة النقدية إلى ميدان إدارة الدولة. وكانت العقلانية السياسية للديمقراطية تعني أعلى مكتسب للبرجوازية الثورية.

و لكن بين الطبيعة والدولة يوجد الاقتصاد. لقد حررت التقنية الإنسان من استبداد العناصر القديمة: التراب والماء والنار والهواء، لتختضعه حالا لاستبدادها الخاص. ولم يعد الإنسان عبدا للطبيعة ليصبح عبدا للآلية، و الأسوأ من ذلك، عبدا للعرض والطلب. وتشهد الأزمة العالمية الحالية بصورة خاصة المأساوية كم يبقى هذا السيد الأنوف والجسور للطبيعة عبداً لقوى اقتصاده الخاص العميق. إن المهمة التاريخية لعصرنا تكمن في إحلال مخطط معقول محل السوق الهوجاء، وتطويع القوى المنتجة، إرغامها على الفعل بانسجام والامتثال لخدمة حاجيات الإنسان. وإنما فقط على الأساس الاجتماعي الجديد سيستطيع الإنسان أن ينهض بظهره المتعب وأن يغدو - ليس فقط بعض أفراد النخبة - ولكن كل واحد وواحدة مواطنا ذو سلطة كاملة في مجال الفكر.

و لكن هذا ليس نهاية الطريق بعد. كلا، إنه ليس إلا بدايتها. إن الإنسان يشير إلى نفسه كتتويج الخليقة. وله بعض الحق في ذلك. ولكن ما الذي يؤكد أن الإنسان الحالي هو آخر وأعلى ممثلي الجنس البشري ؟ كلا، إن هذا الجهيض البيولوجي ذا الفكر المريض والذي لم يخلق لنفسه أي توازن عضوي جديد، لشديد البعد عن الكمال، جسميا كما فكريا.

صحيح أن الإنسانية قد أنتجت أكبر من مرة عمالقة في الفكر والعقل يتتجاوزون معاصرיהם، كالقلم على سلاسل الجبال. ويتحقق للجنس البشري أن يفخر بأرسطو وشكسبير وداروين وبيتهوفن وغولته وماركس وأديسون ولينين. ولكن لم هؤلاء بهذه الندرة ؟ قبل كل شيء لأنهم متحدرون دون استثناء من الطبقات العليا والمتوسطة. وما عدا استثناءات نادرة فإن شرارات العبرية يتم خنقها في أعماق الشعب المضطهد حتى قبل أن تتمكن من الظهور. ولكن أيضا لأن عملية نشوء الإنسان ونموه وتربيته بقيت في جوهرها ولية الصدفة. لا تضيئها النظرية

المضطهدة حتى قبل أن تتمكن من الظهور. ولكن أيضا لأن عملية نشوء والممارسة، ولا تخضع للوعي والإرادة.

لقد جمعت العلوم الأنثروبولوجية والفيزيولوجية والنفسية جبلا من المواد لتقيم أمام الإنسان في كل اتساعها مهام تحسينه الجسدي والفكري الخاص وتطوره اللاحق. وبيد سيمون فرويد العقيرية رفع علم التحليل النفسي غطاء البئر المسمى شاعريا "روح" الإنسان. وماذا ظهر؟ لا يشكل تفكيرنا إلا جزءا صغيرا في علم القوى النفسية المهمة. إن غطاسين ماهرين ينزلون إلى قاع المحيط ويصورون فيه أسماكا غامضة. وحتى ينزل الفكر البشري إلى قاع بئره النفسي الخاص، عليه أن يضيء القوى المسيرة الغامضة للروح ويخضعها للعقل والإرادة.

و عندما سينتهي الإنسان من القوى الفوضوية لمجتمعه الخاص، فإنه سيندمج، في الاجران. وفي مفترقات الكيميائي. و ستعتبر الإنسانية نفسها للمرة الأولى مادة أولية، وفي أحسن الأحوال شبه صناعة جسدية ونفسية. و ستعني الإشتراكية قفزة من سيادة الضرورة إلى سيادة الحرية، وكذلك في المعنى القائل بأن إنسان اليوم المليء بالتناقضات والعديم التناسق سيفسح المجال لجيل جديد أكثر سعادة.